صعوبة تعريف الميتافيزيقا

ومع ذلك كله فليس من السهل تعريف الميتافيزيقا، وبيان طبيعتها، وتحديد مجالها وموضوعاتها، وربما كان المصدر الرئيسي لهذه الصعوبة سببين:

<u>الأول الفلاسفة أنفسهم</u>،

فالآراء هنا لا تتوخى القصد والاعتدال على الإطلاق، بل تذهب إلى حد موغل في التطرف والتضارب، سواء في القدح أو المدح، الهجاءأو الثناء، فبعض الفلاسفة يتحدث عن التفكير الميتافيزيقى بازدراء، وبعضهم الآخر يرفعه إلى أعلى عليين. وهكذا نجد فيلسوفا مثل وليم جيمس .

يذهب إلى أن» :الفيلسوف الميتافيزيقي أشبه بالأعمى، الذي يبحث في حجرة مظلمة، عن قطة سوداء، لا وجود لها»، وواضح من هذه العبارة المغالاة في الازدراء، فالأعمى تتساوى أمامه الحجرة المظلمة أو المنيرة وكذلك القطة السوداء أو البيضاء، التي هي في النهاية لا وجود لها، لكن المقصود إبراز العبثية واللاجدوى من التفكير الميتافيزيقي بصفة عامة .

والحق أن الهجوم على الميتافيزيقا قد بدأ قبل ذلك بزمن طويل وعلى وجه التحديد في عصر التنوير – في القرن الثامن عشر . حيث يقول الفيلسوف وعالم الرياضة الفرنسي «د. لمبرت..

ينبغي علينا، ألا نندهش عندما نجد أولئك الذين يطلق عليهم اسم الميتافيزيقيين قلما يحترم بعضهم بعضا، وأنا لا أشك مطلقا في أن صفة «الميتافيزيقي» هذه قد أصبحت مهانة أمام العقل السليم، مثلها مثل كلمة «السوفسطائي» التي كانت تعني قديما الحكيم. ومع ذلك فقد أهينت هذه

الكلمة عند اليونان على أيدي أولئك الذين كانوا يحملونها، في حين كان الفلاسفة الحقيقيون قد رفضوها بالفعل»). والواقع أن نظرة الازدراء لهذا المصطلح كانت سائدة في القرن الثامن عشر على نحو لا يخطئه النظر، فقد هاجمها فولتير بقوله إذا رأيت اثنين يتناقشان في موضوع ما، ولا يفهم أحدهما الآخر، فاعلم أنهما يتناقشان في الميتافيزيقا»! فضلا عن أننا يمكن أن نجد عنده. في معجمه الفلسفى – عددا كبيرا من كلمات التحقير والازدراء للميتافيزيقيين، والتهكم الخفي الذي ينتهى بمقارنة التجريدات الميتافيزيقية بالتجريدات الرياضية المستمدة من الواقع، والتي تتحقق فيه. كما نجد كوندیلاك يقارن بين الميتافيزيقا الصحيحة (وهي نظريته الخاصة عن أصل الأفكار ومبادئ المعرفة) والميتافيزيقا السيئة لدى الفلاسفة السابقين عليه). وهكذا فعل الماركسيون عندما هاجموا الميتافيزيقا القديمة متابعين ما قاله هيجل عنها، فانتقد انجلز: المنهج القديم في البحث والتفكير الذي يسميه هيجل المنهج الميتافيزيقي، والذي كان يهتم أولا بدراسة الأشياء بوصفها موضوعات ثابتة ومحددة.. وكان هيجل قد هاجم الميتافيزيقا القديمة، على نحو ما تصورها كريستيان فولف ووصفها بأنها قطعية وجامدة، وأراد أن تحل محلها الميتافيزيقا الجديدة التي تتخذ من الجدل منهجا لها). .

ومع ذلك فإننا نجد «كانط» في نفس العصر ينفي عن نفسه تماما تهمة احتقار الميتافيزيقا، يقول في رسالة إلى مندلسون إنني أبعد ما أكون عن النظر إلى الميتافيزيقا على أنها شىء» تافه يمكن الاستغناء عنه، لدرجة أنني مقتنع تماما بأن الوجود الحق والدائم للجنس البشري لا يقوم إلا عليها ولا يكون إلا بها). وهو يصفها أحيانا بأنها ملكة العلوم ،«وبأنها »طفلنا المدلل وكما أن الإنسان لا يستطيع أن يحيا بلا تنفس، فهو لا يقوى على أن يتخلى عن الميتافيزيقا، ويذهب آخرون إلى أن الميتافيزيقا أعظم وأهم جانب في جميع أنشطة المعرفة البشرية، واكترها جوهرية" ويصفها هيجل » بأنها «قدس الأقداس في معبد الفكر، يقول: «لقد تعاونت الفلسفة مع الحس المشترك الساذج، جنبا إلى جنب في هدم الميتافيزيقا، فقدمت لنا بذلك مشهدا غريبا . هو:

شعب متحضر بلا ميتافيزيقا! وهو مشهد أشبه ما يكون بمنظر المعبد الضخم الذي زينت جميع جوانبه بزينات فخمة، لكنه فقد قدس أقداسه!). ويقول ف. برادلى إن الدافع إلى الميتافيزيقا» موجود في قلب الطبيعة البشرية نفسها، متمثلا في تلك الرغبة العارمة في فهم الواقع الحقيقي Reality فهما شاملا..» ويصف أ. شوبنهور.. – الإنسان بانه حيوان ميتافيزيقي».. ويلخص بعض الباحثين هذه الاختلافات الواسعة بين الفلاسفة في فهمهم لطبيعة الميتافيزيقا عندما يعرفونها بقولهم: «إن الميتافيزيقا هي ذلك الجزء من الفلسفة الذي يدعي أعظم الادعاءات، ويتعرض الأعظم الشكوك؛ إذ بينما تجاهر بأن هدفها الوصول إلى الحقائق العميقة عن كل شيء، يعتقد البعض أجيانا أنها لا تتمخض إلا عن لغو غامض؛ أي عن لا شيء. وليس هذا الوضع المزدوج هو أقل سمات الميتافيزيقا التي تتطلب تفسيرا...». سبق أن ذكرنا أن هناك سببين لصعوبة تعريف الميتافيزيقا، كان الأول هو اختلاف الفلاسفة في نظرتهم إلى هذا العلم،